



عن الشعر العربي

بقلم الدكتور يوليوس جرمانس

الاستاذ في المعهد الشرقي بجامعة بودابست

— ٢ —

ان دوحة الأدب العربي أخذت تذبل أوراقها ولكنها لم تمت ، وحفظتها صلابتها — التي عاقت توجهها نحو أدب الملحمة ، والقصة ، والمسرح ، والرواية — من الدمار المطلق . هذه الصلابة حفظت تقاليدها حية الى اليوم — متحجرة قديمة ولكنها لا تزال تنبض بالحياة . هنا الطمي وهنا المنحآت ، وان اللغة العربية العجيبة لني حاجة الى يد فنان ! فمعدنا مجموعة من الشعر العربي تزر بالاسماء : بعضها كبير وعظيم ، ولكن في معجم علاه الغبار . وان الاوروبي ليقف حائراً أمام العظمة المندثرة ، على أن في القرون الطويلة التي كانت المجد فيها هو العزاء الوحيد في الاضمحلال الحاضر أخذ الشعراء يرجعون بأبصارهم الى قم شاهقة ، محاولين أن يصعدوها مقلدين . ولكنهم انما كانوا كالمسنين الذين يتذكرون طفولتهم ويحنون اليها ، فتبدو عليهم مسحة الأطفال . وما أشد التنافر بين الاحى الشائبة ونشاط الأطفال ، وان ما يبدو صادقاً وقوياً في فم الشاب ، لا يكون الا صراخاً في فم أردد لرجل هرم عاجز . ان فم سيعيد نفس الكلمات ولكنه سيأثم ضد أول مبادئ الشعر : الاخلاص !

فقد كان الشاعر الجاهلي يتغنى بالرماح فيدعوها العوالى ، أو الصعدة ، ويتغنى بالحراب فيدعوها الاسل أو الخيطى أو السمر أو السميريات أو الردينيات . فكل انسان كان يعلم أنها كانت تصنع من خيزران يرد من الهند من ميناء « الخط » في البحرين —

التي كانت أهم مكان يصنع هاته الحراب ، ونسبة إليها عرفت « بالخطية » وكانت قناة الرمح تقوم بواسطة النار حتى تصير سمراء اللون ومن هنا جاء اسم « الشمر » . أما سمهر فهو رجل ، وردنية فأمرأة من « الخط » كان كلاهما يصنع الحراب ويطلق عليها اسمه . وكلية رديني لاعلاقة لها بكلمة « ردن » أى غزل ولا بكلمة « مردن » أى مغزل .

فالشعر العربي القديم مملوء بهذه الاشارات الى أسماء كهذه ، وباستعارات غريبة على القرن العشرين . إنه بمثابة خزانة لمعرفة متجمعة يعبر عنها بلغة دقيقة تسر آذان الذين يؤثرون التفاصيل على الجمال المشيد بكلمة ، الذين يفرحون بالدرة الواحدة لاجمال العقد بجماله .

ووقف تذوق قراء العربية للأدب عند حد خاص ، وهذا الحد الخاص حفظ لنا نوعاً من الادب قد مات من قديم ومتع تطوره ونموه في مناحر جديدة . في الاقاصيص الاغريقية أن هرقل أراد أن يقتل انتيوس ، فرماه الى الارض عدة مرات ولكنه كان ابن الارض فاستمد قوته منها فرفعه هرقل الى الهواء وخنقه هناك .

وكذلك تهب الأم الأرض قوة وإلهاماً لكل فن مات بعد أن انفصل عنها ، وكذلك يجب أن يتعلق الأدب بكل ما يحيط به كنبات ينمو منه . والفن والشعر ككل فن يجب أن يستمد مواضيعهما من التربة الوطنية ، ويجب أن يخلصا للحقيقة الراهنة التي تحيط بهما . فصب القوافي وتقليد الاوضاع القديمة التي فقدت أى معنى في الوقت الحاضر انما هي وسائل باطلة ومؤدية الى السقوط ، فان رجل القرون الوسطى كان يسر بالجمال الممارى للكنائس الغربية ، ويقسم بما أملته العقائد التي حفظها من القديسين بالأمر . ولكن رجل اليوم تهمة الحقائق ، وأخذ يفكر لنفسه . وأصبحت أوضاع الفن في النقش والنحت والمعمار والموسيقى والادب حرة طليقة وأصبح المعنى يغلب على الشكل ، والغاية هي التي تعيننا .

بقيت نقطة واحدة : أتبع الأدب العربي النماذج العربية أم الشرقية ؟

ليس الاسلام ثقافة شرقية وضعت ضد المسيحية ، فهدد كليهما الشرق ومنابعهما متشابهة . وجاء على الاسلام وقت لبس فيه بمدينة بغداد روحاً غربية أرسطاطاليسية أكثر من أوروبا نفسها . ورؤد المسلمون بعد انهزامهم في (طوروس) الى أفريقيا وآسيا حيث اضطرتهم ظروف اقليمية جغرافية الى بقاء التطور والنمو في حدود ضيقة ، وإذن فقد حكم التاريخ على المسلمين بذلك كما أصبحت المسيحية غربية لنفس الدوافع .

الاسلام في وسط أوروبا - لنفرض أن العرب قد نجحوا في طريقهم الى الاستانة . إذن لكان الاسلام قد نما ومدّ كلّ قواه المستترة وساعدته الظروف الجغرافية ، وإذن لكان المسلمون قد أصبحوا أبطال الغرب بدل الاوربيين المسيحيين اليوم . وان تأخر حال الامم الاسلامية اليوم لاذنب للاسلام فيه - بل للتطور التاريخي والموقع الجغرافي . وتفوق الثقافة الاوربية ناشئ من الجرى وراء الحقائق ، والنظرة الموجبة للحياة ، والجهاد ضد التعصب للعقائد . ولا بدّ للشرق من أن يقفو خطاها اذا أراد أن يتحرر من قيود الماضي ، اذا أراد أن يحيا في الحاضر . فليس الامر أمر الشرق والغرب ، ولكن أمر نظرة قديمة للحياة لا تتفق والمكتشفات الحاضرة للعلم وما أنتجه - هذا في ناحية ، وفي الناحية الاخرى أمر التناسب في الفن والتشريع مع الحاجات اليومية .

انا لا أحضّر على تقليد أعمى للنماذج الغربية . أنا أحضّر على الصدق في الادب والاخلاص للحياة الحاضرة في لغة طبيعية صافية . فليتنبه كتاب العربية الى درس المسائل المعقدة في الحياة ، وليصوّروا آلام الفلاح وآماله وافراحه ، ومشاكله الصغيرة وأوهامه وفشله . وليصوّروا حوارى القاهرة المظلمة حيث يذاكر الطلبة وليصفوا جمال « الحريم » حيث تحلم المرأة بالحظ وتذوى في ألم . وكفانا ما كتب في الماضي عن القمر والنجوم والفراشات ، وما كتب عن المجد القديم وانتهى الى هذه الحال المحزنة . لا بدّ للشعر العربي من أن يستيقظ من الماضي ليخلق حاضراً . دعنا من الكلمات الرنانة الجوفاء فان الحياة صارت تضيق بمثل هذا . دعنا ننظر الى المعنى الداخلى للحياة ونعبر عنه بكلمات بسيطة يفهمها التلميذ . واني أوكد ان الشعر العربي سيكون صيحة الميدان المبشرة بارتفاع للاسلام لانظيره له . واذا عجز الكتاب عن أن يحققوا آمال قراء العربية ومطامعهم ، فان هؤلاء سيلتفتون بالطبع الى الادب الغربي وينسون لغتهم .

ولقد اعتقدت من كتابات ابى شادى ان الجيل الجديد الذى يقوده هو يتبع مبادئ سليمة للشعر ، وأن حماسه وعبقريته لكفيلتان بأن يزجياه الى النصر .



ممارسة الأدب

اطلعتُ على مقال فريدٍ للأديب المعروف عباس محمود العقاد حمل فيه حملةً مشروعةً على ممارسة الأدب ، وقد استهله ببشرى زفها الى قرائه وهي نقاد الطبعة الأولى من ديوانه « وحى الأربعين » . فأمّا عن هذه البشرى فشكلُ أديب حرّ لابد أن يطرب لها ، إذ كيفما كانت نظرةُ الأدباء الى شعر العقاد فما لاجدال فيه أن أدب العقاد وأدب أقرانه أوّلَى بالدراسة من الكتابات البذيئة التي تُنسب زوراً الى الأدب وقد شاعت في مصر شيوعاً مخجلاً بل تخصصت لها بعضُ الصحف ولا حسيب ولا رقيب ، في حين أن الأولى أن يُعهد الى وزارة المعارف باصدار الرخص للصحف والمجلات الأدبية ومراقبتها ، وأن يُترك لادارة الامن العام الاشراف على الصحف السياسية .

أقول إن الأدباء الذين لا يرضيهم شعر العقاد وغير العقاد ويودّون استثناء هذا وذاك من زمرة الشعراء ينسون أنهم في الواقع يسيثون الى الأدب الجدّي ، إذ لا يستفيد من وراء هذه الغصومات غير أنصار الأدب الرخيص إن صح لنا أن نسميه أدباً .

ولكني أخالف العقاد في استنتاجه أن رواج ديوانه - على قلة المطبوع منه - دليلٌ على إقبال القراء على شعر الخاصة . فلولا أن العقاد صحفيٌّ معروفٌ - وقد استغلَّ صحيفة « الجهاد » للترويج لديوانه - حتى ينشر الأمداح الخاصة التي لا يعنى بنشرها أى أديب مشهور - لما لاقى شيئاً من هذا الرواج الذي يبشرنا به ، خصوصاً في ظروف الأزمة الحاضرة . وعلى هذا فلا بدّ لنا من الاعتراف بأن الاقبال على الأدب الجدّي ما يزال أمراً خيالياً في مصر ، ولا عبرة بنجاح العقاد ولا هيكل ولا المازني ولا غيرهم من الأدباء المتصلين بالصحف المشهورة ، لأن لهم من طبيعة مراكزهم ما يسهّل لهم وسائل الدعاية والترويج لمؤلفاتهم ، ولو غادروا هذه المراكز وحرموا التقريظ والدعاية لما لاقوا غير الكساد المحقّق .

قلتُ إن حملة العقاد على ممارسة الادب حملةٌ مشروعةٌ لولا أنه مخطئ في التطبيق ، إذ كان ينبغي له أن يبدأ بنفسه : فهو في طبيعة من تحكموا في أقدار

الأدباء الممتازين وفي مقدمة من حملوا حملة غير مشرفة على غير واحد من رجالنا البارزين بل على نفس أساتذته . وكان الأولى بالعقاد أن يوجه حملته الى أصحاب الجرائد وبعض المحررين الذين يقصون عن الميدان الأدبي كثيرين من النابهين . أمّا وهو قد وجه هذه الحملة الى مثل اسماعيل مظهر ومصطفى صادق الرافعي والى غيرهما من أعلامنا الذين كان لهم فضل ماثور على الأدب العربي لما كان العقاد نفسه نكرة من النكرات فهو يعرض نفسه الى نفور الكثيرين من أهوائه العمياء .

يعجب العقاد من إحجام معظم الأدباء البارزين عن نقد كتبه، ولا أرى محلاً للعجب: لأن العقاد لا يرضيه ما هو أقل من التقديس ، وإذا شاء أن ينصفه أي ناقد مستقل لم يكن جزاؤه غير لطمة منه ناسباً اطلاع ناقدته وتدقيقه الى الجهل والتحامل . فالعقاد نفسه مسؤول عن هذه الحالة كما أنه مسؤول عن المقالات السخيفة التي تشيد بعبقريته « الجبارة » وبنحو ذلك من التهريج .

يدعى العقاد أنه لم يتحايّل على الشهرة . ولا أعرف تحايلاً أسوأ من التظاهر بالعظمة والايحاء بأساليب شتى لمن يلفون حوله للاشادة به واستغلال مركزه الصحفي لهذه الغاية . ويظهر أن هذا مرض عند العقاد ظهرت علاماته الأولى منذ كانت تصدر جريدة « الرجاء » ، ولولا خصومته مع بعض الأدباء الذين كانوا يناصرونه ويحسنون الظن به - فلقوا من جحوده ما لقي كل أديب آخر عاونه - لما عرفنا ما عرفنا من أساليب العقاد المعجبية لاقتناص الشهرة مما يميز كل وسيلة مقبولة أو غير مقبولة لجأ اليها أي أديب آخر ازاء تجاهل المجتمع أو جحود الرأي العام .

فليدعنا العقاد إذن من هذه المباهاة وليهذب من أساليبه بدل لوم الادباء الذين ينفرهم منه بأخلاقه . ليتورّع قليلاً قبل أن يهاجم رجلاً متقفاً طالى النفس مثل اسماعيل مظهر ، وقد كانت ولا تزال مجلته (العصور) من المراجع الثقافية الممتازة في دور الكتب . فاسماعيل مظهر من الافذاذ الذين استوعبوا ما استوعبوا من أصول الفلسفة والنقد الادبي والاطلاع العام الغزير ، وقد ضحى الكثير لخدمة آرائه الحرة ، والعقاد على أي حال في منزلة تلميذ من تلاميذه . ثم ماذا نقول عن نقده للرافعي هذا النقد المسفّ ؟ أليس الواقع أن كلا من العقاد والرافعي قد سجّلا في نقد نشيد شوقي العيوب الملحوظة عند عامة الناس ، وليس ما سجّلاه بما يؤبهله حتى

يباهى به أحدهما أو يدّعيه الآخر ؟ ومهما يكن من شيء فإنه يؤسفنى أن مجرد الرافعى العقاد من شاعريته وأن مجرد العقاد الرافعى من ألمعيته الأدبية واللغوية النادرة التى تؤهله للاستقلال بأرائه اللغوية . ولعلّ العقاد امتنع من أبيات الرافعى المنشورة فى العدد الماضى من (أبولو) وقد حسبته كما حسبها غيرى موجّهة الى العقاد . (تلقينا الأبيات المشار إليها من الرافعى منذ شهر ، ولا نعرف لها أى علاقة بالعقاد ، وإنما عددناها مثالا للشعر الفكاهى . وقد تأخر نشرها بسبب ازدحام مواد المجلة . ونحن على كل حال نزه صفحات هذه المجلة عن الطعن الجارح ، ولا نهمنا غير المناقشة الأدبية البريئة سواء كانت لنا أو علينا - المحرر) .

ومن أغرب ما يقوله العقاد عن اسماعيل مظهر أن مظهر يريد أن يتشبه به ، ويستشهد على ذلك بمباحث طرقها مظهر وطرقها العقاد من قبل بل يستشهد بتشابه العناوين ! فهل العقاد يتشبه بالمازنى لأنّ المازنى سبقه بالبحث عن ابن الرومى ، وهل يتشبه بطله حسين لأنه سبق العقاد بالتعريف عن جيته ، وهل يتشبه بأبى شادى لأنّ أبى شادى سمى ديواناً قديماً له « وحى العام » وجاءنا العقاد بوحي الأربعين ؟ أليس هذا من غرور « أبى العباس » وهل بعد هذا غرور ؟ وهل يفوت صاحبنا الذى يستشهد فى مقال أدبى بما يقوله نكرة عنه فى جريدة « الزمان » التونسية ويتهافت على ذلك أنّ كثيرين من ادبائنا البارزين يظفرون بأبلغ من هذا التقريظ ثم لا يعبأون بأذاعته فى مثل هذا المجال ؟

لقد قرأت ما نُشر فى مجلة (أبولو) من النقد الفنى لشعر العقاد ولسلوكة كنفاد وأديب فلم أَر فيه شيئاً من التحامل ، وإن خالفت بعض حضرات الكتاب فى جانب من استنتاجاتهم . والمطلع على أحدث التصانيف فى نقد الشعر وموسيقيته (وفى مقدمتها كتاب تشارد بورزيميت عن « المثل والتغير فى الشعر » ورسالة لاسيل أبركرمى عن « الشعر : موسيقيته ومعناه ») فضلاً عن المؤلفات الاصولية الدائمة ، لا يمكنه أن يدعى أنّ النقاد الذين تناولوا « وحى الاربعين » خالفوا أصول النقد الأدبى التزىه فى شيء .

وقد نسب الهمشئ وغيره الى العقاد تعمّد النقل عن شعراء غربيين بارزين فرجعت الى النصوص المشار إليها فوجدت تشابهاً عظيماً فى المعانى وأثراً جلياً للاستيحاء ، ولكنى أستبعد كثيراً أن يكون العقاد قد تعمّد ذلك ، وغاية ما يقال

أنه وقع فيما وقع فيه المازني من قبل من تأثير مطالعته ، وهو ما لا يعلم منه شاعر أو كاتب بدرجات متباينة . وأخشى أن فتح هذا الباب يؤدي الى مهارة لانهاية لها خصوصاً والعقاد بارع في المجادلة الصحفية إن لم أقل السفطائية ، بدليل مناقشته الواهية في عيوب فنية بارزة يلحها كل ذى بصر فنى وذوق سليم .

وخلاصة رأيي أن العقاد مفكر قبل أن يكون شاعراً وجدانياً ، وهو رجل له خطره وفضله . ولولا طباعه الشاذة وغروره المتناهي لانتفع به الأدب انتفاعاً أتم ، ولكن الغرض والانانية مما يفسد آراءه وأحكامه ، حتى أ كاد لا أستطيع أن أقول باطمئنان اذا كان النفع من أدبه يفوق كثيراً الضرر من محاولاته الهدامة المفرضة . واذا كنا نرفض نزعة التحكيم فيجب أن نرفض كذلك تحكم خصومه الذين لا يريدون لشعر العقاد الظهور والذوبوع . وهم لو استطاعوا ذلك - ولن يستطيعوه - فأى جدوى تعود على الادب من حصر نماذج الشعر ؟ وما الفائدة من وراء هذه الدكتاتورية التى نحارب بها دكتاتورية أخرى ؟

محمد الحولى



شاعرٌ يعلن اسلامه

بعد ألف سنة

(النابغة الشيباني مسلم وليس بنصراني)

ليس أشدّ على التاريخ ولا أوجع للحقيقة من الهفوة يهفوها العالم الكبير فلا تعرف أنها هفوة بل تستقبل بالرحب والسعة في صدور المجالس وبطون الحلقات وفوائح الكتب على أنها حقيقة لا شك فيها ، ثم تتوارثها الاجيال ويسبغ عليها القدم ثوباً خادماً من الجلال الكاذب تتراءى فيه كأنها بنت البحث وسليسة الدرس والتنقيب ، إذ على قدر شهرة العالم وبعد صوته يكون ذبوع ما يصدر عنه . بل ان هناك أمراً آخر لا ينبغي إغفاله وهو أن العادة قد جرت على احترام آراء العلماء

الكبار وعدم مناقشتها ومن هنا يكون الضرر أبلغ والشفاء أبطأ ، إذ لو أن القضية كانت صادرة من رجل خامل الذكر لكان في الأذهان استعداداً للشك فيها وإن كانت حقاً ، فأما وهي صادرة من رجل محقق وعالم مبرز أو مؤرخ جليل فلا موجب لاسلاف الشك وتقديم الحذر .

وقد يهفو المؤرخ الكبير فتكون هفوة التاريخ : ذلك أنه قلما كان علماء التاريخ في الماضي ينقبون مما يكتبونه وإنما كان مهمهم على الرواية والكتب ينقلون عنها ، والحقيقة التاريخية كانت دائماً موضع بحث ولكن قل من ملاّ يده منها ، ذلك أننا



محمد خالد

نشاهد في عصرنا الحاضر — على ما نحن فيه من حضارة — الحادثة الواحدة يرويها عدد من الرواة وفي كل رواية مخالفة ظاهرة للأخرى فكيف بالماضي وقد كانت وسائل الانتقال بطيئة وأداة نشر العلم محدودة !

أسلفنا هذه المقدمة بين يدي الموضوع الذي أردنا نشره نعتذر عن هفوة التاريخ أو على التحقيق من هفوة الأديب الأكبر — بل نخر اللغة العربية الامام أبي الفرج الاصفهاني مؤلف «الأغاني» — في حق الشاعر الفحل النابغة الشيباني . أما هذه الهفوة فهي زعم أبي الفرج أن النابغة كان نصرانياً حيث يقول في صدر ترجمته له : « وكان فيما أرى نصرانياً لاني وجدته في شعره يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى » . وقد أثر ابو الفرج فيمن جاء بعده من مؤرخي الآداب

العربية فعدّوا هذا الشاعر نصرانياً تأثراً بما رواه أبو الفرج ، وهكذا غلط التاريخ مع النابغة طوال هذه الحقب وأخرجه عن دينه في الكتب ألف سنة أو تزيد .

وأني لأحمد الله أن وفقني الى اصلاح هذا الخطأ التاريخي فقد كنت في أوائل مارس أنصفح ديوان النابغة الذي طبعته دار الكتب الملكية فأحسنت طبعه وأجادت ضبطه وقد رأيت الدار أثبتت ترجمة صاحب « الاغانى » للشاعر في أول الديوان وفيها يقول عن النابغة ما أسلفنا ذكره ، ثم مررت بالديوان مروراً خفيفاً فادركت لأول وهلة أن النابغة مسلم وليس بنصراني بل انه يعلن اسلامه من فوق مأذنة في كل قصيدة ينشدها ، وليس هذا من قبيل الاستنتاج أو التوليد بل ان لفظ « الاسلام » جاء في مواضع أخرى وقائع حال لا تصدر الا عن مسلم ولا يتشبه بها نصرانيٌّ مهما كانت مرونته ومطاوعته للظروف .

وانى أشرك القراء معي في هذا الحكم فأنقل لهم بعض الشواهد ثم أحيلهم على الديوان ليتبعوا سائر قصائده فهي حافلة بالأمثلة والبراهين .

جاء في صفحة ١٧ :

وتعجبني اللذاتُ ثم يعوجني ويسترني عنها من الله سائرُ
ويزجرني الاسلامُ والشيبُ والتقى وفي الشيب والاسلام للمرء زاجرُ

وفي الصفحة ٥٢ يصف الشاعر حصار مسلمة بن عبد الملك لمدينة « طرنده » ويقول بلسان المسامين :

تدعو النصارى لنا بالنصر ضاحية^(١) والله يعلم ما تخفى الشراسيف^(٢)
قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا فصخرها عن جديد الارض منسوفُ
كانت اذا قام أهل الدين فابتهلوا باتت تجاوبنا فيها الاساقيف^(٣)
فالיום فيه صلاة الحق ظاهرة وصادقٌ من كتاب الله معروفُ

وفي صفحة ٢٢ يقول :

ولولا الله ليس له شريك إلهُ الناس ذو ملكٍ وعرش
لباركني من الخرطوم^(٤) كأس تكاد سؤور نفحتها نلثي

(١) ظاهرة (٢) جمع شرسوف وهو غشروف ملق في اعلى كل ضلع (٣) جمع اسقف (٤) الحر

فأنت تراه في الشاهد الاول قد جاهر بالاسلام وتحصن به من اللذات ، وفي الشاهد الثاني تبصره مجاهداً كبيراً في سبيل الله ، وفي الشاهد الثالث ينفي الشرك بالله ، وهذه هي أخصّ خصائص الاسلام وأظهر مظاهره ولا سبيل لاحد بعد ذلك أن يتشكك أو يمين .

« . »

بعدهذا نعود الى صاحب «الآغانى» فنعتذر عنه من هذه الهفوة بذلك العمل العظيم الخالد : عمله في تأليف كتابه «الآغانى» وحيائه آداب اللغة وفنونها فيه . واني لاقرر من غير حذر أو تردد ان كتاب «الآغانى» هو الكتاب الذى حفظ على اللغة آدابها ووعى لها شعرها ، ولولاه لجهلنا اسماء كثيرين من الشعراء بله شعرهم . والذى أرجحه هو أن أبا الفرج لم تقع له نسخة كاملة من ديوان النابغة والا لما عزّ عليه أن يستدرك هذا الخطأ اليسير فهمه .

-بقى أن أبا الفرج يقول إن النابغة يحلف بالانجيل والرهبان . وقد تصفحت الديوان فوجدت هذا الحلف قليلا جداً في شعره ولم أر لفظ الانجيل الا في مكان واحد ولعله الذى رآه ابو الفرج ، على ان الشاعر لم يورد الحلف ارنجبالا وانما حكاية عن غيره من الرهبان المتبتلين على عادة كثير من الشعراء حينما يريدون تأكيد شئ واقراءه ، وعلى أى حال فان حلف المسلم بالانجيل والتوراة وغيرهما من الكتب السماوية لا يتجافى مع عقيدته الدينية فان الاسلام يقر هذه الكتب ويأخذ أهله بالايمان بها ما

محمد خالد

الشاعر المستحجر

هاجنى عباس افندى محمود العقاد في الصفحة الادبية التى يكتبها بجريدة (الجهاد) من غير أن أعرف لآنى شئ هاجنى ولا اية حاجة فى نفسه أراد ان يقضى بما أسف فيه من باثر القول وظاهر العنت والسخيمة التى ظهرت بين سطوره . ولقد تساءل الأدباء لماذا يهاجنى العقاد فلم يجدوا ولم أجده من سبب ظاهر الا أن العقاد ،

كما يقول ادينا الكبير مصطفى صادق الرافعي ، هو العقاد ١ ولا حيلة فيما لا حيلة للناس فيه ، الا فيما شئت الاقدار أن تطوى في نفس العقاد من صفات تظهر الانسانية في الصورة التي يمثلها العقاد في هذا الزمن عظةً وذكرى ، لتذكر الناس بما فيهم من أصل حيواني وجبلة وحشية ، كأن تقول لهم : أيها الناس — اذا نسيتم اصولكم الوحشية ، فها دونكم من أخلاق استاذ حروف المطبعة من بنط ٣٦ «العقاد» وصفاته مثل حتى عليها، ما يمنعه عن أن يكون ما كانت اصولكم في الغابات والكهوف الا القانون والا جبل الجلال والا المقصلة ١

فلقد تطاول واستعظم وشيخ بأنفه الى السماء عزة بالاثم . فلما تناوله القانون أخذ يتدلل وأخذ يتنصل مما كتب وأخذ يبكي خلال المحاكمة ، وحط أنفه في الرغام، ومضى يهذى كمن أصابهم الهلاس ويصيح : أريد شمسا ، أريد ضوءاً ، أريد وأريد، حتى لقد أخذت الناس عليه الشفقة وقالوا مسكين زلت به القدم وخانتك العبارة ، فليرحمه القضاء يرحمهم الله ١ ولكن القانون لا يعرف الرحمة الا مع الراجين ، كما انه لا يعرف مع المتعاضمين بغير عظمة، المتجاهين بغير جاه ، الا العدل في جبروته وقوته .

هذه صورة أولى من العقاد . أما الصورة الثانية فاليكها : كتب أحد أدباءنا منبهاً في مجلة (أبولو) على بعض سرقات العقاد من الشعراء الغربيين ، فأنكش العقاد وصغر وتضائل وأخذ يزجى الى ذلك الأديب الرسول بعد الرسول ليتفاقم وإياه على ان يرحم ضعف العقاد وان يستر الفضيحة ، وان الله كما يقول عجائز القرى حلیم ستاراً

وهذه صورة ثانية من العقاد . وأما الصورة الثالثة فانا لا نبخل بها : فانك اذا رأيت ضعف العقاد في الصورة الثانية فانك ولا شك تنكره في احدى المكاتب وقد سأله أديب في كثير من الأدب الجم رأيه في شيء يغضب العقاد ان يقول فيه رأياً ، صحيحاً أو غير صحيح . وكيف لا تنكره وهو يتناول على ذلك الأديب ارتجالاً وللأشياء ويتنقصه والأدباء بأسفه العبارات ويقول في ناشئة الأدب انهم فقاقيع وانهم حثالة الزمن وثمالة الكأس التي زهدت فيها الاقدار ١ وبمقدار هذا يكون الفرق بين العقاد اذا قد ، فانه لا يعفو . اما اذا أمر وصرت عليه رجل الغراب كما يقول المثل العربي ، فانه ينكمش ويتأوت كالثعلب ، وتندك قامته المسديدة حتى تصير بضعة أشبار ، وهي على ما عهدت تشرف على النخلة السحوق .

هذه هي الصورة الثالثة . أما الصورة الرابعة فيصورها لك العقاد متهجماً على

الزعيم الاكبر المغفور له سعد باشا . واذا كنت لاتعرف كيف تهجم وكيف تطاول فاعرف أن بعض أعضاء الوفد إبتان تكوينه قد أخذ على رئيس تحرير «الاهرام» انه يفرغ عليهم من الالقاب ما لا يجب ان يفرغ على غير الرئيس احتراماً لشخصه واجلالاً له في المكانة التي تليق برئيس الهيئة التي تسعى في سبيل استقلال البلاد . وكان العقد محمراً في «الاهرام» يهذب رسائل الاقاليم . ولقد أفضى أعضاء الوفد بما أرادوا امام العقد وكان يتلقى الاوامر اليومية من رئيس التحرير ، فانفجر انفجار البركان يرمى سعد بما رمى به كل عظيم في مصر . واذاً من الاعضاء الذين سمعوا كلامه احمد لطفي السيد بك وعبد العزيز فهمي باشا والمرحوم المكباتي بك على ماروي لى رئيس تحرير «الاهرام» . ومن كانوا في الحجرة ثلاثة أحياء يرزقون وواحد حتى لا يرزق الا من جرائد الوفد وهو العقد !

واليك الصورة الخامسة . فان هذا الحى الذي لا يرزق الا من جرائد الوفد ، وينادى كل يوم على صفحاتها إفكاً «بالاستقلال التام أو الموت الزؤام» يروج مراراً في مجالسه الخاصة بان المصريين خير لهم أن يقبلوا من الانجليز نظام الدمينيون على أن تترك المجلثرا للمصريين الحرية الكاملة في تكييف شكل الحكومة ، كأن تكون جمهورية مثلاً ، ومثلاً فقط . كلا ! استغفر الله ! بل انه يناقش في هذا أدباء معروفين وقد نقل الى هذا الحديث سلامة موسى ، وهو رجل مستقيم الفكر حر الرأي يقول ما يعنى ويعنى ما يقول .

واتم في جميع هذه الصور لاترون العقد الحقيقي : ترون في احدها العقد الخائن المتأله ، وفي الثانية العقد الضعيف المستكين ، وفي الثالثة العقد الشتام السباب ، وفي الرابعة العقد المتهور المفرط ، وفي الخامسة العقد المقنع - العقد الدومينيوني عليه من النفاق السلام !

وانى لأريد أن أصور لكم العقد في صورة سادسة : فانه وهذه حاله لا يتورع عن ان يرمى الناس بان «منهم من يمشى مع الحسد والضغينة ، فكما امتلأ قلبه باكبار انسان اشتد ضغنه عليه واشتدت رغبته في تنقصه والاساءة اليه» . وهوبهذا انما يعبر عما في نفسه للناس من حق وحفيظة . والآن فليتنفضل وليقل لماذا هاجني ولاى سبب اخذينتنقضى من غير ان أترض له بمدح أو بدم ! ؟ وأقول مدحاً لأن من الذين مدحوا العقد وأكبروه وأطانوه على أن يكون شيئاً مذكوراً ، من ناله العقد أكثر مما نالني منه ارتجبالاً وسخيمة ، مع اني والله الحمد لم ارتكب جرعة

ان أبني في العقد لبنة واحدة ، والاّ لانقضت هذه اللبنة على أم رأسي ، كما انقضت كل لبنة وضعها اديب في اساس العقد على رأسه ، فتركت أثراً قائماً على ان الشاعر القديم لم يعن بقوله :

خلقت على ما في غير مخير هوأى ، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى واعطى ولم أرد وامسى وما أعقبُ الاّ التعجبا !

الا من كان العقد أو من هو على شاكلته ممن ترسل بهم الافدار بين فترات الزمان ليقس الناس عليهم الفارق بين الانسانية في صورتين : احداها يمثلها العقد والاخرى يمثلها سقراط الفيلسوف .

واى شيء تذكر للعقد من أدب النفس أو صفاء الفكر ؟ أقوله في احمد لطفي السيد بك الذي بملا قلبي احترامه بانه « الفيلسوف العجر » ؟ أم وصفه الاستاذ محمد حسين هيكلك وهو احد كبار رجال صحافتنا واحد عمد الادب الحديث بانه « الفر المصطول » ؟ أم قوله في صاحب الدولة محمد محمود باشا وهو احد كبار رجال الدولة بانه « الاحق المغرور » ؟ فإى شيء يجب ان يسقى العقد سوى السم الذي يسقى الناس ؟ وكأنه بما تعلم وبما عرف من اشيء أشبه بأفعى سقيت سما ، لتزداد شرتها وتقوى عُذتها على فعل الشر !

ولقد استشرى العقد حتى خيل اليه ان أقدار الناس واعراضهم حرم مباح ، وكبر في نفسه الغرور حتى لقد ظن بان تعفف الناس عن ايذائه بمثل ما يؤذيه به ليس عن فضل ولا عن أدب ، ولكن عن خوف من عظمته كما يدعى ، في حين ان الحقيقة انهم يدارون بذاته كما يعرف كل الناس . وان البغاث ليستنسرفى قفراً جرد ، وان حبة البر لتطفئ ، ولكن قبل أن تدور عليها الرحي وتهشمها أو تتركها هباءً بديداً وما كنت لا كتب في العقد شيئاً ، لولا أن أحد الاصدقاء قد نبهنى الى شيء فاب عن ذا كرتى . فقد نشرت في عدد مارس من مجلة (أبولو) مقالا تحت عنوان « أدكتاتورية في الأدب » نقدت فيها الدكتاتوريات الأدبية وقلت إن هذه الدكتاتوريات من أخطر ما يتعرض له الأدب في أمة من الامم من الاحداث الجسام لانه يغمر الناشئين ، ويفغى الكبار ويزيد غروراً فنفقد بذلك الأدب والاُدباء . وضربت أمثالا بدكتاتورية صموئيل جونسون في انجلترا ، ودكتاتورية فولتير في

فرنسا ، وقلت إن دكتاتوريات هؤلاء إن كانت عن جدارة فإنها نعتت على الادب الانجليزي والادب الفرنسي ، فبالك بدكتاتوريات قديميها من يجدر بنا ان نسميهم « ادباء الوضع » واخذت أرمم صورا تعريفية لادباء الوضع ، والظاهر ان احدى هذه الصور العامة قد لبست العقد ، وجاءت متصلة على قدر غروره وعلى قدر ما في نفسه من دعوى ، فكان أن هاجني من غير ان يمر العقد بخاطري ! واليك تلك الصورة .

جاء في مجلة (ابولو) ص ٧٩١ في العدد السابع :

« ونجد الآخر (هذا بعد أن وصفت صورة أولى من أدباء الوضع) وقد تبدل من معجم جونسون وتراجمه ومن مجلدات فولتير وعلمه ، جلسة يكعوا فيها على احد جنبيه ، وصوتا يخرج من اعماق الصدر تعبلا لافطرة ، وكبرا يأخذ به العصبية الذين يحاول ان يتخذ منهم بطانة وشيعة يستخدمها في الاعلان عن ذاته الشريفة وعن أدبه الجم وعن فلسفته الادبية ورسالته التي أداها لاهل هذا الجيل التبعيس ، في حين ان غاندى يشفق على نفسه ان يقال فيه انه صاحب رساله أدت لاهل هذا الجيل .

ولقد تخيلت هذه الصورة تخيلا . لاني لم يضمني والعقاد مجلس ابدأ ، اللهم الا هنات من ايماءة في شارع أو دقائق في مكتبة . ومن الغريب ان يشعر العقاد ان هذه الصورة تلابسه فيحق ويرتفع صدره ويهبط غيظا ثم يهاجني في « الجهاد » ارجح الا ومن غير أن يذكر سببا . إذن فمن ذا الذي أعلمه أن هذا الثوب مفصل على قدر حقيقته ؟ ومن ذا الذي أشعره بانها مذبذبة ؟ انه انما ينم بذلك عن أنه أحد « أدباء الوضع » والحمد لله إذ اهتدينا الى أحد أعضاء « عصبية الوضع » ، كالجرم الذي يوثق نفسه ويتقدم طائعا للانهزام ! وهذه عندي أولى حسنات العقاد نسجلها له في كثير من القبلة ، لأن أقل ما فيها في الدلالة يبشر بانه سوف ينفع فيه التهذيب .

ولعله قد تخيل اني لم أنقد شعره قصورا . غير اني امسكت عن شعر العقاد عن عقيدة : وعقيدتي الراسخة هي انه مستحجر - شأنه في الشعر شأن بقايا الحيوانات البائدة التي تطمر في جوف الارض ويبدلها التفاعل الطبيعي من الحالة العضوية الى الحالة المعدنية ، فاذا استحجرت سماها علماء البلنتولوجيا بالحفريات ، فما تدل الا على ان في عصر من العصور الجيولوجية قد عاش حيوان هذه بعض صفاته أو هذه صفاته . وشأن العقاد في الشعر شأن هذه الحيوانات وشعره كبقاياها : وانت ما حيلتك في

بقايا مستحجرة ؟ أتستطيع أن تهذبها لتكون شيئاً آخر ؟ وما ينفعك تقدك لما ارادت الطبيعة ان تكون عليه هذه البقايا ؟ فالبائد بائد ، والعقاد بائد كشاعر .
واذا أردت المثال نخذ قوله :

أرى في جلال الموت إن كان صادقاً جلالة حق لا جلالة باطل
أرأيت اذن كيف يكون الاستحجار ا فان الموت اذا اشترط أن يكون صادقاً
فلاحتمال الآخر قطعاً ان يكون هنالك موت كاذب ؟ ثم هل رأيت التواء الصكر
وتعقد النظر ؟

وديوانه الاخير « وحى الاربعين » اى وحى أعوام طويلة قضاها العقاد يعالج
الشعر وبصانعه لعله يسلسل قياده ، فاذا به بعد هذه السنين المديدة لا يعرف بحور
الشعر ويخلط تخليطاً كما جاء في نقد الرافعى لديوانه . فقد جاء في ذلك النقد ما يلى :

« وفي ص ١١٥ (الجسم الضاحك) .

نفر ك الضاحك ، لا بل وجه - لك الضاحك ، لا بل كل جسمك
لا بل الدنيا التى تو مض نوراً حول نجمك »

قال الرافعى : « فهذا النظم من العروض الثانية من الرمل ووزنه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

ولكن البيت الأول وزنه هكذا :

فاعلاتن فاعلاتن فاع فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن »

قال الراوى : « فلما بلغ الرافعى من نقد العقاد هذا المبلغ أشفق على العقاد
ان يسقط مغنياً عليه وتدور به الدنيا فأمسك عن أن يزيده من هذا ا » على ان نقد
الرافعى لم يزدنى الا اعتقاداً بأن العقاد شاعر مستحجر ، وما قام عندى دليل على
استحجاره . فقد ما أقام « وحى الاربعين » . ولعل العقاد يعرف بحور الشعر بعد
أن يبلغ أزدل العمر بادن الله

واذا أردت دليلاً آخر فاقراً قوله :

تنشقتُ من فيك عطر الثما ر أو نكهة العنب الناضج
فلو قلت أطمئنى قبلة لأنبات عن صدق الطازج ا

وتصور أيها القارئء شخصاً واقفاً بعرض الطريق يحرك ضبتيه ويلوك بين أسنانه شيئاً ويطيّل المضغ حتى يسيل لعابه ، فإذا حملك حب الاستطلاع على أن تسأله: ماذا تمضغ؟ أجابك أنى انما امضغ قبلة «تنشقها» من فم حبيب خيل الىّ أنّ فيها عطر الثمار ونكهة العنب الناضج فماوسغنى الآن ألوكلها وأمعن فيها مضغاً ولوكلّ حتى يسيل لعابى على صدرى . ولا يتبادر اليك انى أسخر منك فانى انما اعبرك بهذا عن صدق طازج لم يفسد ولم ينفل بازمن بل هو من خيالى الفياض الذى يفيض بالمعانى الجديدة غير معوق عن الجريان !

إذا وقع لك مثل هذا فايّ المعانى يتصل بفكرك لاول وهلة؟ هل يتصل بفكرك من معنى الا أن هذا الرجل معتوه ؟

ثم تخيل رجلاً يذهب الى حبيبه ويميل اليه فى دلال ويقول : أطعمنى قبلة يا حبيبى ! فهل لهذا الحبيب - إن لم يكن معتوهاً مثل محبه - الا احد طريقين : فاما الكرياج ، وإما الفرار حذر ان يصيبه من جنون محبه « حادث مكدر » ؟

قال الراوى : فاردتُ أن أعرف ما شأن هذا الرجل الذى يلوك القبل ويمضغها بعد أن يتنشقها من فم الحبيب حتى يسيل لعابه ، فسألته : من تكون أيها الانسان؟ فنظر شطر السماء مولياً بوجهه عنى أنفة - وهذا شأنه - وقال : ألتست تعرفنى ؟ أنا العقاد الشاعر الفحل والفيلسوف الأكبّر صاحب أسمى رسالة أدبت لاهل هذا الجيل والظاهر أنك لا تفهم شعرى... إذن فكُن على يقين من أنك سوف لاتفهم منه الكثير ولا القليل لانك ضعيف العقل مغرور مصطول ! على أنك اذا اردت ان تفهم منه شيئاً فاجعل حبيبك يطعمك القبل وقف بعرض الطريق وامعن فيها مضغاً حتى يسيل لعابك !

أليس هذا أثر من الآثار التى يتركها بيت العقاد فى خيال من يريد أن يستوعبه؟ وهل دليل على الاستحجار أبلغ من هذا ؟! والواقع ان العقاد أراد ان يتخذ من الشعر صناعة فلم تسلس له . غير أننا على الرغم من هذه العقيدة منعود الى شعر العقاد لنعرفه كيف يكون نقد الشعر .

وقد يخطئ الشعراء جم الخطأ إذ يطيطرون مع الخيال وحده أو يمتسلمون للعاطفة وحدها وليس لهذا الخطأ الا أن ينتج أحد أمرين : إما ضعفاً فى الصناعة ، وإما تهوياً فى المعنى . فاذا اراد الشاعر ان يتقى هذين فعليه أن يلاحظ أمرين :

الاول — الأثر الذى يتركه شعره فى نفس قارئه والصورة التى يطبعها فى مخيلته .
 فإذا تخيل شاعر نفسه واقفاً على شاطئ غدير يتسمع للاصوات ولما تناجيه به الطبيعة
 من لغتها الحية ثم صاغ شعره الذى يصور به هذه الحالة فقال : وكنت أرهف أذنى
 للسمع حيناً وأرخيها حيناً آخر . فأى صورة تنطبع فى ذهنك توّاً الا صورة بهيمة
 ترفع أذنيها حيناً وترخيها حيناً آخر تستجمع الاصوات وتستكشف ما حوله لها ؟
 وانها لتكون صورة فاسدة حتى ولو تخيلت غزالاً ولكن ماذا عليك لو تخيلت
 حماداً أو بغلاً ؟ فانت حر ما دام الامر محصوراً فى اذنين ترهفان ثم ترتحيان !
 وإى شئ أطول من الحمار أذن ؟ !

الثانى — ان يلاحظ الشاعر فى المعنى ما يشترك معه فى الافكار ، ولاشتراك الافكار
 (association of thoughts) شأن كبير فى الشعر ، وهو بحث نفسى عميق
 سوف نوفيه حقه من الدرس بعد . ولا بأس من أن نمضى فى شرحه باختصار :
 فانك اذا قلت « نهرأ » اشتركت مع فكرة النهر كل ما يتصل به — فتخيل الشجر
 والماء والانسياب والحيوانات والظلال وما الى ذلك لما تجرّ فكرة النهر أو صورة
 النهر من الصور الاخرى . فاذا سمعت مثلاً قول العقاد :

تنشأت من فيك عطر النما ر أو نكهة العنب الناضج
 فلو قلت أطعمتنى قبله لانبأت عن صدق الطازج

فأية صور تشترك فى مخيلتك مع هذه الالفاظ ؟ فان « تنشقت » تجر الى ذهنك
 توّاً علبه السعوط والتشقق والمنديل الاحمر يخرج به شيخ معمم من جيب قفطان بلدى
 ويضعه على أنفه ويتمخط بعد أن يعطس . و« أطعمتنى قبله » تجر الى فكرك المضغ
 وتحريك الضبتين واللوك حتى يسيل لعابك . وهذا ما أريد أن أنبه اليه شعراءنا
 الناشئين والذين نرجو منهم الخير العميم للادب واللغة . أما العقاد الشاعر المستحضر
 فسوف يقول : ما هو « اشتراك الافكار » ؟ لقد قال به كل علماء النفس . ولكن ليعلم
 العقاد ان العبرة هنا بالتطبيق ، وسوف اكون أول من يطبق هذا المبدأ النفسى
 بأسلوب علمى على نقد الشعر ؛ وستسجله لى (أبولو) فعله لا يتبيح بعد هذا ولا
 يتهمنى بأنى أريد ان اكون العقاد والعياذ بالله . على انى سأبدأ فى عدد (أبولو)
 المقبل بشرح هذا المذهب التطبيقى الجديد فى نقد الشعر وأتناول فى أول ما أتناول
 شعر العقاد ، ويرحمه الله ؟

توارد الخواطر

ورد ذكر عباس محمود العقاد في العدد السابع من (أبولو) فذكر الممشرى أن قصيدة العقاد (غزل فلسفي) مقتبسة من قصيدة شلي (ايسكديون) وقصيدة العقاد في وصف طلوع طيبة هي من قصيدة تيوفيل (معبد الاقصر) ، وقد ذكر الدكتور أبوشادي أن هناك توارد خاطر بين العقاد وعبد الرحمن شكري وأن قصيدة (ضلال الخلود) تذكره بقصيد شكري عن (الشاعر البابلّي) .

وذكر عبد الحميد شكري في العدد السابع أيضاً أن قصيدة العقاد (الهداية) مأخوذة من قصيدة توماس هاردي (الى النجوم) ، وأن فكرة العقاد في تشبيه الدنيا بالخان مأخوذة من قصيدة هاردي (الفجر الجديد) .
وأحب أن أذكر للقارئ شيئاً من توارد الخاطر الذي يحدث للعقاد لعله يجد فيه تسليّة لغرابته .

قال العقاد في صفحة ٢١٣ من ديوانه :

يا ليت لي ألف قلب تغنيك عن كل قلب
وليت لي ألف عين تراك من كل صوب

وهما منظور فيهما الى قول شكري في الجزء السابع من ديوانه في قصيدة (آية الحسن) :

قد صار لي ألف عين بعد رؤيتكم
وصار لي ألف قلب أرتجيك بها
وقال العقاد (ص ٢٢١) :

ليك يا بحر من داع نطوف به
وهي من وحي شكري في قوله :

إن لم أنل منه ما أروى الغليل به
قد يحمد المرء ماء ليس يرويه

وقال العقاد (ص ٢٢٤) :

ما للمحب سوى قضاء واحد
نفر الحبيب له المقرّ الناق



أترك تحفل كل شارق غيبه هبط القضاء به الى الاسداف
 ان القضاء لما يهكم وقعه فيمن تحب من الورى وتجاو
 وأنا المعانق للقضاء بأسره فى جسم أنيد كالندى شفافا
 وهى أيضاً من وحى شكرى فى الجزء الرابع من ديوانه (ص ٢٦) :

إن راقب الناس فى الافلاك طالهم فان عينك لى سحره وتبيان
 وان طرفك نجم الحظ أرقبه سعدته ونحسه واحسانه وحرمانه
 وقال العقاد من نفس القصيدة :

لو كان حظك من جلاك حظنا أوجفت تطلب صحتى إيجافى
 أو كانت الدنيا تروك بعض ما راقت بحسبك كنت خير مصافى
 وهى من قول شكرى فى الجزء السابع من ديوانه (ص ١١) :

خير لنفسك أن لم تدر ماضيت من فتنة الخلق فى حسن واحسان
 اذا لا فرطت من سكر ومن خبل ورحت تنعم فى ظلم وعدوان
 ومن قوله فى الجزء ٧ (ص ٢١) :
 ومن العدل ان يحب صبيح
 حسنه كى يكون جد رحيم

ومن قوله :
 ولو كنت تدري كنه حسنك كله غدرت ولم يعنف عليك رقيب
 وعربدت من سكر الجمال ، وإنه لسكره اذا فكرت فيه يطيب
 ويقول العقاد فى نفس قصيدته :

هى حجة القدر العزيز على امرى يرميه حين يشور بالاجحاف
 وقد قال شكرى :

وكيف أجد هذا الكون خالقه وفيك لله آيات وبرهان
 وقال العقاد (ص ٢٥٥) :

وحيانا بزهر من رباها فيا للورد يهدى الياسمين
 وهو من قول خليل مطران :

زانت الرأس بفلّ هو بالرأس تحلّي
مارأت قبلك عيني وردة تحمل فلاّ

ومن أغرب ما حدث من توارّد الخاطر للعقاد قصيدته الموسومة « نبئني » ص ٣١٦ :

لست أهواك للجمال وإن كا ن جيلا ذاك الحيا العفوف
لست أهواك للذكاء وإن كا ن ذكاء يذكي النهى ويشوف
لست أهواك للدلال وإن كا ن ظريفاً يصبو اليه الظريف
لست أهواك للخصال وإن ر فّ علينا منهنّ ظلّ وريف
أنا أهواك « أنت » ، « أنت » ، فلا شيء سوى « أنت » بالفؤاد يطيف

فان هذه قطعة من قصيدة المرحوم طانيوس عبده الشهيرة التي كانت تغنى في المجالس :

أتيتُ فألقيتها ساهرة وقد حملتُ رأسها باليدين

وقد نشرت في ديوان طانيوس عبده المطبوع حديثاً ولكنها مثبتة أيضاً في كتاب « مختارات الزهور » تصنيف أنطون الجليل بك وهو مطبوع قبل ديوان العقاد بسنين ، وفي هذه القصيدة يقول طانيوس عبده :

أحبّك لا لجمالٍ وُصفٍ فكان السبيل الى كل عجب
ولا لكمالٍ به تتصف صفاتك في كلّ صوب وحذب
ولا للذكاء عجيب مُعرف فكان الرسول الى كلّ قلب
ولكنّ هذا الفؤاد افتتن (بأنّ) و (أنت) المنى والمرام
وكلّ الذي فيك حلوه حسن وكلّ الذي في فؤادي غرام

ومن أغرب ما يذكر في باب « توارّد الخاطر » قصيدة للعقاد (ص ٢٧١) لبس بين أبياتها رابطة ووحدة فهي مجموعة أبيات لم يخرج منها بيت واحد عن ديوان عبد الرحمن شكرى ، وكاتب هذا المقال يعتقد أن عبد الرحمن شكرى أعظم شاعر عاطفي كتب بالعربية في هذا الوجود الفاني .

قال العقاد :

وأبعث فيه الشعر لو قد بعثته على صخرة ردّت عليّ ندائي

وهي من قول شكري :

وهل تنفع النجوى وقلبك صخرة ؟ ألا خابت النجوى لدى كل صخرة !
وقال العقاد :

ولو كافأ البغض الضرار لاضمرت
وهي من قول شكري (جزء ٧ ص ١٠) :

أني أهالك من حسن تجور به حتى لأفلاك في اثناء أحيان
ومن قوله (جزء ٧ ص ٣٢) :

لو كنت شاهد عبرتي وصباتي
لعلمت أنك بالسوء وبالقلي
وقال العقاد :

ألا ليت لي ياطلعة النور أعيناً
أراك بها شبع الجوانح رؤية
وهي من قول شكري (جزء ٧ ص ٩) المشار اليه سابقاً :

قد صار لي ألف عين بعد رؤيتكم
كي لا يضيع جمال منك أبصره
بل ليتني الكون طراً ليس يبصركم
وقال العقاد :

وما خسر الدنيا ولا الدهر شاعر
وهو من قول شكري (جزء ٧ ، ص ٤٥) :

وعطفك عندي نهزة لا ينالها
الى أبد الآباد إسعاد خاسر .

ومن توارد الخاطر فكرة المجوس وهي فكرة غير قربية ولا شائعة . قال العقاد :

وياليت لي سحر المجوس لعله
ولشكري اكثار من ذكر المجوس وولع بالفكرة . قال (جزء ٧ ، ص ٣١) :
طرفه تألق منك حتى خلته
قبس المجوس يضيء للعباد !

وقال (جزء ٥ ص ١٧) :

فان ذكراك في فؤادي كالنار في معبد المحوس
وأما معنى بيت العقد الاخير فهو من قول شكري (جزء ٥ ، ص ٤٦) :
ويا ليت لي عزم القضاء وحوله فتحمد بين الناس منك العزائم
وقال العقد :

تعلم قلبي كيف ان رغبة على خطوة تعمي على القدراء
وهو من قول شكري (الجزء الاول ص ٤٤) :

رضينا بالبعد وأنت داني فصرت على بعادك كالأمانى
واذا كان القارىء يرى بعداً كبيراً بين البيتين فاني اذكر له ان العقد اخذ بيت
شكري الاخير فقال في قصيدة اخرى (القريب البعيد) بالصفحة ١٥٩ :

بعيد مدى منك القريب المؤمل واقرب منه النازح المتعلل
ولشكري ايضاً في المعنى (جزء ١ ، ص ٣٢) :

بعثت عيني منها نظرة قربتني منه حتى بعدا
وقال العقد من نفس القصيدة :

أردنا لهذا الحسن نفساً محسنة ولم تدر ان الحسن لو لم يرداء
وهي من قول شكري (جزء ٧ ص ٣٣) :

قد كنت أحسب كل حسن فطنة تودي بقسوة وحشة التضداد
فمنيت منك بغير ما أملتة أسفاً لقلب منك غير جواد
وقال شكري ايضاً (جزء ٧ ص ١١) ومنها أخذ العقد تشبيه الحسن بالرداء :

أنسى جمال رداء أنت لابسـه حتى كأن لم يكن حال له فاني
وقال العقد يستنكر ملامة الاقدار :

وهل تملك الدنيا لنا ما زريده فنتحى عليها خلة الجلاء ؟
وهي من قول شكري (الجزء الخامس ص ٤٧) :

علام تترى الدنيا الذي لا تناله وترجى نفوساً كي تتوق وكى تظا
ولو كان قلب المرء بالعقل حكمه لما زود الاقدار مدحا ولا ذماً

وللعقاد قصيدة (ص ١٤٥) تجدها بمعناها ووزنها وموسيقاها بدويان شكري
(الجزء ٧ ص ١٦) ، ولعل هذا أغرب توارد للخاطر عثرت عليه !

وسأقتصر على مثال وللقارىء الرجوع اليه . ولا يظن أن هذا من باب

المعارضة التي كلف بها أهل المدرسة القديمة فإن ديوان شكرى طبع قبل ديوان العقاد بما يقرب من عشرين سنة ونفذت طبعته ، وليس من معنى المعارضة أخذ المعنى كما هو . قال العقاد :

صفه لى صفه وما كان بمجهول الصفات
أترى أملح من خطرته فى الخطرات ؟
أترى أصبح من خديه بين الوجنات ؟
أترى أعدل من قامته فى الصعدات ؟
ضاحكاً كالصبح يححو بالضياء الظلمات
صفه فى كل كساء ، صفه فى كل الجهات ؟

وهذا الجزء يقابل قول شكرى من القصيدة :

سألوا : فى أى حال هو أحلا فى الصفات ؟
قلت : أحلا ما تراه فى حديث اللحظات
فاذا أرخى لحاظاً كان أحلا فى السبات
وهو أحلا منه إن فاه وأحلا فى الصمات
وهو أحلا ما تراه عاطياً باللففات
واذا صدّ فاحلاه جهم النظرات
فاذا لان فاحلاه طلق اللمحات
كلّ حال منه أشهى حالة فى الحسنات !

فترى أن العقاد لم يزد على المعنى سوى قوله : صفه فى كل كساء ، صفه فى كل الجهات ، فأثلف بذلك ما قصد اليه شكرى من صفة حالات الحبيب المتعلقة بصورة الحسن فيه . وأما العقاد فيذكر الكساء والجهات كأن الحبيب فى كساء غيره فى كساء ، أو هو هنا غيره هناك !

وديوان العقاد عامر بتوارد المخاطر إلى درجة تثير أشد الدهشة : فكل قصيدة غزلية لها أصل فى ديوان شكرى بتشابه وتشويه يطرحان الخيبة والغم فى قلوب مريدى العقاد . وقد اقتصرت هنا على توارد المخاطر فى أبيات أبيات . أما تشابه القصائد بحملتها فقد تركته لضيق المقام ، وقد أفردت لذلك فصلاً أقصدها إلى دراسة شكرى بقدر ماتسمو مداركى إلى ذاك الأدب وما يستوعب قلبى من نفحات تلك القيثارة الآلهية ؟

الملاحظات والشعر

— ١٠ —

كانت الغاية التي نسعى اليها في بحث الملكة أن الذين لا تقصر ميولهم على الشعر يصابون بتنازع الملكات ، ولا يوفّقون فيما يعالجونه من مناحي الشعر ، ولا يبرأ شعرهم من مظاهر الركة أو الجفاف الذي أدى اليه الوهن في ملكته بتأثير مازاحها من ملكة الكتابة أو طبيعة من طبائع التفقه في فرع من أفرع المعارف — ذلك لأن الشاعر على ما أزعهم لا بد له لأن يكون متأثراً أن يؤثر جانب الحس على جانب التعقل ، وأن يصرف نفسه عن عوامل الابهام والتعمق فيما يتناوله في شعره من ألوان الفكر التي لا يتيسر له أن يكون ظافراً فيها إلا اذا كان لمن يقف لها حظ من التأثير وإيمان بقوة الشاعر فيما صوره من خواطر النفس وأحس بعض الاحساس بمشاركة الشاعر له فيما تغلغل في أعماقه من ذلك ، وكان له مصدر إيلام أو برم . أما اذا خاطب العقل كما كان الشأن في شعر أبي تمام والمعري فانه لن يحظى بنزوع النفوس اليه ، ولن يكون في درجة الوجداني ذيوياً وتأثيراً ، ولن يكون له حظه من البقاء والخلود . ولذلك أستطيع أن أكون صريحاً في مخالفة الدكتور طه حسين وأن أذهب الى غير ما ذهب اليه في المفاضلة بين أبي تمام والبحتري ، إذ لا يرضينا ما ينقلنا ويعنفنا في شعر أبي تمام من إغراق في الفكرة ، وغلو في الدقة ، وفردية في تصوير الاحساس ، وغرابة في اعلان الخاطرة ، وسوى ذلك كثير مما يخرج الشعر عن حد اللذة والتلهي به ويجعله أشبه شيء بقوانين الفلسفة ، تحتاج ما تحتاجه من ضبط للنفس واستجماع للحس ، دون أن يكون ذلك كفيلاً بنجاح الفرد فيما يتلمسه من اللذة فيما يقصد اليه من أثر الشاعر . ولكن البحتري شاعر قبل كل شيء ، وشاعر يصور ما يلذ للعاطفة تصويره ، ولا يقصد الى تكلف في الاغراق وإغراب في الاحساس . وهو الى جانب ذلك خفيف الروح ، محبب الى القارئ لسهولة تناوله ولطف مأخذه وان لم يتحلل من غفلة التأثر ولم تبرئه طبيعة عصره من نوازع المجاملة .

وقد أوجبت على الشاعر الناشئ تحصيل الاداة في التصوير والامتلاء بما ييسر له شرح الخاطر من صور اللفظ في أساليب الشعر ، ومعرفة ما تحمل عليه الملامة

من الاختيار له لئتم اعلان العاطفة النفسية في صراحة وایضاح . أما أن يظل نافرأ من دراسة الصور القديمة فذلك مما يقعد بملكته عن التمام ، وسوف نحس دائماً بقلق حين نقرأ الشعر لما نلمح فيه من ظاهرة الركة وعقلة الملاممة والانجم اللفظي . وسوف نتأمل شعر اكثرهم فلا نجد فيه لمحة من الافصح عن مقصد الشاعر وسوف نشيع هذا النوع من الشعر كما نشيع شعر عباس محمود العقاد ببسمة الاشفاق على الشاعر ، لما سلكه من مسالك التعسف والتكلف ، دون أن نرى في أكثر شعره ما يبرر غروره وادعاءه للتأثر وعمق الاحساس ، وغير ذلك مما يريد ان يكره المتأدين إكراهاً على الاعتراف به وتصديقه من غير خبرة أو إحساس .

— ١١ —

ولا أريد أن أطيل في هذا كثيراً فسوف أعود الى صاحبنا في القريب — ولكنني أحب الآن أن أشير إلى شيء جديد تنمو به ملكة الشعر وتكسبه حظاً غير قليل من الرقة والطرافة ، ويسر للشاعر أن يحذق فنوناً من الاغراض قد لا تتم لمن لم ينعم بمثل بيئته في جمالها ولطوها وفي عظمتها وجلالها — ذلك هو البيئة : تلك البيئة لها أثر في خلق الشعراء وتكوينهم . فأكثر ما يطبع الشاعر إذا كانت غنية بالمشاهد ومنمية للعاطفة ، وأكثر ما تبدو آثار الجفاف والقحولة إذا كانت البيئة على ذلك النحو في إمدادها لخيال الشعراء وتلوين الاذواق . ولست في حاجة لأن أسوق أمثلة من شعر البادية لتحقيق مجانسته للبيئة وفقره بتأثيرها من الهياث المنظمة والعاطفة الخفية بعض الخفاء والنزعة الوجدانية السامية التي لا تتعلق بعالم الحى ولا تستهويها المادة .

العربي ساذج ، ولذلك تراه أكثر ما يكون صريحاً فإذا تغزل لا يرضيه إلا أن يفصل اجزاء المحبوبة ويأتى على وصف كل جزء وتشبيهه بما يزيد به جمالا وبهاء . والعربي البدوى لا يرضيه إلا ان يعث بهذا الجمال ، ويمتغ نفسه بلقمة أو عناق ، وقد يسترسل في ذلك أحياناً كما ترى في قصيدة البدوى في وصف الجميلة :

الوجهُ مثلُ الصبحِ مبيضٌ والفرعُ مثلُ الليلِ مسودٌ
وكأنها وسنى إذا نظرت أو مدنف لما يفقُ بعدُ
بفتور عين ما بها رمدٌ وبها تداوى العين الرمدُ

وتريك عريناً به شَمَّ وتريك خدّاً لونه الورْدُ
والمعصمات ما يرى لهما من نعمة وبضاضة زندُ
ولها بنان لو أردتَ به عقداً بكفك أمكن العقدُ !

ثم يذكر بعد ذلك ما لا مجال لسرده لوضوح ما فيه من إسراف وعبث . وهكذا كان الشعر العربي في بيئته الأولى وفي الحياة الاجتماعية التي يغشاها الفساد العام وفي الحياة العقلية التي لا ترجع في تكوينها إلى أساس محترم . فلما تمّ اختلاط العربي ببعض العناصر الآرية وكان لمدينة الفارسيين أثر كبير في تهذيبهم أخذ الشعر كما أخذ البدوي يحظ من العذوبة والرقّة والاحاطة في نظر الحياة . وحين قامت دولة للعرب في الاندلس نعم الشعر العربي بيئة لم يسبق له بها عهد ، ومهر الشعراء في باب التصوير الشعري لتأثير مشاهد البيئة . وعلى كل حال فقد أخذ الشعر في سائر الاقاليم سبيله الى الرقة والتهذيب وتحمل غير قليل من لواعج النفس الصادقة ، وتحمل كثيراً من زفرات العاطفة .

— ١٢ —

وأى شعر أبلغ في التأثير ، وأتمّ عن اللواعج ، وأدلّ على عمق الاحساس من قول البحترى يندب (الجعفرى) قصر الخليفة المتوكل :

تفير حسنُ الجعفرى وأنسهُ	وقوّض يادى الجعفرى وحاضرهُ
تحمل عنه ساكنوه فجاءهُ	فعادت سواء دورهُ ومقابرهُ
إذا نحن زرناه أجدهُ لنا الاسى	وقد كان قبل اليوم يهيج زائرهُ
ولم أنس وحشَ القصر إذ ريع سربه	وإذا ذعرت أطلاؤه وجأذره
كأن لم تبت فيه الخلافة طليقة	بشاشتها والمملك يشرق زاهرهُ

وهكذا يذوب البحترى أمى وحسرة على تلك الدولة البائدة وذلك العز الزائل ، ويأخذ من نفسه ما صار اليه القصر من وحشة عميقة ، ورهبة موحشة ، وحياة قد أفقرت من مظاهر اللهو والمرح ، وفنون اللعب التي تحفل بها القصور والشرفات .

هكذا كان شأن الشعراء الذين تهبأ لهم نوع من البيئات المدنية ، حتى من تكلف الحكمة منهم قد وقع له كثير من الشعر هو صورة النفس ولحمة الخاطر .
قال المتنبي :

وكيف التذاذي بالأصائل والضحي إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبَّاً ؟
ذكرت به وصلاً كأن لم أفز به وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثبَّاً
وفتانة العنين قتالة الهوى إذا نفحت شيخاً روانحها شبَّاً
فيا شوق ما أبقي ، ويالى من النوى ويادمع ما أجرى ، ويقلب ما أنصبي ا

وأى نفس أشد اكتئاباً كنفس ابن الرومي في رثائه لولده ؟ وأى دمع
أكثر غزارة من دمعهم ؟ وأى أب رحيم ينفطر انفطاره ويتحرك أسى ويذوب
أسفاً كما كان هذا الشاعر بعد فقد ذلك الابن ؟ إنك لتراه يندب الأمل المحطم
بعوته ، ويمعجب لقلبه كيف لم ينفطر على أثره ، ولعينه كيف لم ترو قبره بدمعها
المنهمر . قال ابن الرومي :

ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على غمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد
لعمري لقد حالت بي الحال بعده فياليت شعري كيف حالت به بعدي
فقدت سروري كله إذ فقدته وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من العين لا تسجدي
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد

إذن فليس هناك ما يحمل على الشك في أن ما سقناه من شعر من نبتوا في غير
البيئة البدوية يدلنا على تأثير البيئة في الاقدار على الرقة وفي تهذيب الملكة وحدة
الخاطر وصدق الاحساس ، وذلك ما نريد ان نقرره في هذا الحديث .

وقد اقرأ في (اشعة وظلال) - وهو ديوان حديث من الشعر المبكر للدكتور
إبي شادي - وقد أعثر على قطعة من الشعر قام بترجمتها الدكتور وهي للشاعر
الانجليزى جيمس رسل لويل في موضوع « التجديد والزمن » ، وهي وما
يمثلها مما تنبئ بنبذة الغربيين في التطور وعدم التقيد بما دان به الأسلاف
إذا لم يثبت صلاحه - في حين أن الشاعر العربي مولع بذكرى الماضي ، وشديد

التعلق به ، والحنين عليه ، ومولع باحترام تقاليد الاسلاف ، ومورثات الماضين وإن كانت خباء وناق ، أو ريمماً وطللاً !

أريد أن أقول إن ملكة الشعر ترقى برقى البيئة إذا كان الشاعر متأثراً متصلاً بها اتصالاً قوياً غير سالك مسالك التقليد ولا مدفوعاً بدافع المجاملة . وقد يساعد في ذلك أيضاً ما خص به الأديب من حسن الذوق ، وما وهبته الطبيعة من حسن التصرف ودقة الاحساس وقوة الملاحظة وسائر المعنويات الموهوبة التي تثبت انتفاعه بما يلح أو يسمع أو يقرأ ، أو ما يحسه في أعماق ومكنون فؤاده فيتجلى شعره - لما وهبه - صورة لكل نفس وشبحاً لكل احساس ، ودرماً لكل عاطفة ، وطيافاً لكل خاطر ، ومتى وصل الفرد الى ذلك صح له أن يحمل لواء الشعر والآ يومم بسمة الناظمين .

وبعد أن فرغت مسألة الملكة وتقويتها لا يسعني الا أن أشكر أسرة (أبولو) ، وأمل أن أكون على صلة بها بما أتناوله بعد من دراسة الشعراء .

محمد فابيل



ميلاد الشاعر السجين

جبرائيل دانتيرو

(لمناسبة الاحتفال في ايطاليا ببلوغه سن السبعين في السابع من الشهر الماضي)

يتطلع اليوم الكثيرون من أحفاد وسلالة قيصر الى أفق السياسة الإيطالية يفتشون بميونهم الرومانية الدعجاء عن «جبرائيل دانتيرو» معبود الشعب الذي